ملحمة نجيب محفوظ الروائية

بقلم أنور المعداوي

يسر « الآداب » ان يعود اليها بعد غيبة طويلة الناقد الكبير الاستاذ انور المعداوي الذي رافق مولدها وغذاها بكثير من مقالاته القيمة . والاستاذ المعداوي يتناول هنا بالدراسة والتحليل عمل نجيب محفوظ الاخير في الرواية العربية الحديثة .

— ١ —

« بين القصرين » عمل فني جديد ظفر اخيرا بجائزة الدولة . ونجيب محفوظ ، صاحب هذا العمل ، ظفر بتقدير النقد قبل ان يظفر بتقدير الدولة ، منذ ان بدأت خطوط فنه الروائي تتجمع في نقطتي ارتكاز رئيسيتين لا بد من توافرهما لكل عملية انطلاق فنية ، هدفها الوصول الى نقطة النهاية .. عنصر المراقبة النفسية الدقيقة لشتى التجارب الجماعية المعاشة — هي نقطة الارتكاز الاولى لعملية الانطلاق الفني — حين تتركز هذه التجارب في بؤرة العدسة اللاقطة ، لتبرز موقف الكاتب من مشكلات عصره .. وانصهار الملكة القاصة ، في بوتقة الممارسة المذهبية لكتابة العمل الروائي — هي نقطة الارتكاز الثانية — حين تكون هذه الممارسة تفاعلا ثقافيا واعيا مع المقاييس النقدية المتطورة ، بحيث تنبثق من خلاله — أعني هذا التفاعل — قيم الكاتب من الناحية الفنية .

ان أعمال نجيب محفوظ — على مدار نقطتي الارتكاز الاولى والثانية — تمثل نوعا من التصاعد الهرمي الذي يتدرج من القاعدة بخان الخليلي ، والقاهرة الجديدة ، وزقاق المدق ، والسراب ، وبداية ونهاية ، ثم ينتهي الى القمة في بين القصرين ، وقصر الشوق ، والسكرية ، وهي الاجزاء الثلاثة التي تكون في مجموعها عمله الروائي الاخير ، او ملحمته الروائية الجديدة . واذا كان هذا التصاعد الهرمي لم يسجل تفاوتا كبيرا بين الاعمال الاولى والعمل الاخير ، من ناحية المستوى الفني للكاتب ، الا انه قد سجل هذا التفاوت ، من ناحية الوعي الاتجاهي بين درجات التصاعد وقمته .

ان المستوى الفني عند نجيب محفوظ ، ما يزال يحتفظ بمقوماته ، فطريقته في رسم الابعاد النفسية للشخصيات ، وأسلوبه في ابراز الابعاد المكانية كاطار مادي للاحداث والمواقف ، وطابعه في اختيار النموذج الانساني الرامز الى المشكلة ، هي التي تكون حتى اليوم ، الملامح الثابتة لشخصيته الروائية . واذا كان هناك بعض التغير ، فهو خاص بعرض المونولوج الداخلي في صورة جديدة ، قوامها تسجيل الحركة النفسية مباشرة قبل كل عملية تطوير موقفية ، ورسم الحدث من الداخل وليس من الخارج ، كما فعل في تقديم اللحظة التي استشهد فيها فهمي ، بطل الجزء الاول من روايته الطويلة .

ولكن الخطوة الكبيرة الزاحفة كما قلنا هي التي سجلها العمل الاخير ، من ناحية الوعي الاتجاهي الذي يمثل موقف الكاتب من مشكلات عصره .. فبعد ان كان نجيب ، يقتطع المشكلة الجماعية من واقع مرحلة زمنية واحدة ، بحيث تمثل قطاعا عرضيا من قطاعات المجتمع في جيل معين ، بعد هذا ، اتسعت لديه دائرة العرض الفني ، بحيث تركزت فيها مشكلات العصر على امتداد اجيال ثلاثة : هي الجيل الذي عاش قبل ثورة ١٩١٩ ، والجيل الذي عاصر تلك الثورة ، والجيل الذي جاء بعدها ومهد لتلك الانتفاضة الشعبية المتمثلة في ثورة ١٩٥٢ .. ومن خلال قطاع طولي ممتد ، عبر الاجيال الثلاثة ، استخدمت فيه شتى القطاعات العرضية ، كروافد نهرية تعين المجرى الرئيسي على الانطلاق ، تبرز لنا اسرة السيد احمد عبد الجواد تاجر البقالة بالنحاسين ، بما فيها من الابناء والاحفاد ، كرمز انساني صادق لتطور المجتمع المصري في تلك المرحلة التاريخية الطويلة ، من مختلف الزوايا السياسية والاجتماعية والفكرية .

وعندما نستعرض النماذج البشرية ، التي يتالف منها الكيان الاجتماعي لهذه الاسرة التي بدأت حياتها قبل ثورة ١٩١٩ ، نلمس ان لكل نموذج تركيبته النفسية التي تميزه وتوجه سلوكه حيال الاحداث .. فالسيد احمد عبدالجواد ، رب الاسرة ، شخصية ازدواجية تمثل اتجاهين متناقضين في الحياة .. فهو من جهة ، شعار واقعي لطبقة التجار الميسورين في جيله ، وهي الطبقة التي كانت تبحث عن المتعة الروحية والجسدية ، وتمزج بينهما مزجا كاملا على ما بين المتعتين من تفاوت صارخ .. يملك الاذن الحساسة والشعور المرهف ، لاستقبال الصوت الانساني المطرب والنغمة الموسيقية الشجية ، ويسعى الى مجالس الغناء والطرب ، ، ويشارك فيها اذا جاوزت النشوة عنده حدها المعقول ... وهو من جهة اخرى يضيف الى هذه المتعة الروحية ، متعة اخرى تتركز في اتجاهه الديني الذي يحرص عليه ، الى الحد الذي لا يتصور معه ، ان مثله قد يفكر يوما في ارتكاب المعصية .. ومع ذلك فهو عبد خاضع ، يستلذ عبوديته لسلطان الغريزة ،

بدافع الفتوة الجنسية التي كانت موضع المباهاة ، عند ابناء جيل عاش في فراغ هائل من تمثل القيم الانسانية الرفيعة ، كنتيجة طبيعية للحرمان من توجيه الثقافة .. وهو ، ذلك المرح العربية خارج بيته ، شخصية اخرى تتميز داخل البيت ، بالجد والوقار والاستبداد والعنف ، حتى تحول البيت امام تقاليده الارهابية الى سجن مرهق ، قيدت فيه ـ بالنسبة الى نزلائه ـ حرية السلوك والارادة !

وأمينة ـ الزوجة ـ تمثل تركيبة نفسية اخرى ، هي تركيبة الاكثرية المطلقة من بنات جيلها المتزوجات ... انسانة ـ تبعا لفهم المجتمع المصري لوضع المرأة في ذلك الحين ـ لا تصلح الا للقيام بدور المصنع الادمي لانتاج النسل ، والبقاء كل فترات العمر خلف جدران البيت ، لتؤدي فروض الطاعة للزوج ، على طريقة الجواري المجلوبات من سوق الرقيق !

وياسين ـ الابن الاكبر للسيد احمد عبد الجواد من الزوجة الاولى المطلقة ، شاب يعيش على هامش الحياة ، كرمز معبر عن كل النماذج التي عاشت في جيله ، ممثلة لتكرارية النسخ العقلية المشوهة ، حيث تكتفي هذه النسخ بقسط ضئيل من التعليم ، لتواجه به المصير في معركة الحياة .. وهكذا ورث هذا الابن الاكبر ـ كاتب مدرسة النحاسين ـ ورث نظرة ابيه الى القيم الحياتية ، حين تتركز هذه القيم في بؤرة اشباع الغريزة عن طريق السلوك الجنسي ، هذا السلوك الذي تلقى فيه ياسين ـ بحكم قانون الوراثة المزدوج ـ جانب الاندفاع فيه عن الاب النزق ، وجانب الانحطاط عن الام المطلقة !

وفهمي ـ الابن الثاني لرب الاسرة ، الشاب المثقف طالب الحقوق ـ هو النموذج الوحيد الذي يمكن ان يتخذ عنوانا ضخما لتلك الانتفاضة العقلية المتوثبة التي وعت سطورها الشبيبة المثقفة ، وعكست اهدافها الجارفة على خط السير الكفاحي لثورة ١٩١٩ .. ان صورة هذه الشخصية ـ كما رسمها نجيب محفوظ ـ تتفق تماما مع طبيعة الدور الذي قامت به : شاب هادىء متزن ، لا يتكلم الا بحساب ، وتحت رماد الهدوء الخارجي ، تختفي جمرات تنتظر اللحظة المناسبة ، لتبهر بوهجها كل العيون .. وانسان يغلف اتزانه بأثواب طبيعية من الطموح الحزين . لم يكن فهمي يعيش من اجل ذاته ، ولكنه كان يعيش من اجل المجموع ، ولهذا علق صورة سعد زغلول ـ الرمز الكبير الخالد لكفاح الشعب ـ علق هذه الصورة على جدران فكره وشعوره .. كان يدرك مدى الامكانات الرهيبة التي يملكها المستعمر ، لمواجهة حركة شعبية عزلاء ، يقودها زعيم اعزل .. من هنا كان الشعور بالحزن ، ومع ذلك ، فقد كان طموحه يتفوق على حزنه ، حين يمتلىء أملا في ان تنتصر قوة الحق الاعزل ، على قوة الباطل المدججة بالسلاح .. وفي سبيل القيم الانسانية الرفيعة التي عاش من اجلها فهمي ، لقي بطل « بين القصرين » مصرعه في احدى المظاهرات التي نظمتها لجنة الطلبة التنفيذية ، ابتهاجا بعودة الزعيم من منفاه !

واذا ما انتقلنا الى شخصية كمال ـ الابن الاصغر ، والطالب بمدرسة خليل أغا الابتدائية ـ تصادفنا اخطر شخصية في العمل الروائي كله ، بل اخطر شخصية رسمتها ريشة نجيب محفوظ على الاطلاق .. ولكننا لن نجد في « بين القصرين » الا جذور هذه الشخصية او بداية نموها الانساني ، فاذا ما انتقلنا الى « قصر الشوق » و « السكرية » ، طالعتنا امتداداتها الفكرية السامقة ، التي تبرز لنا كل الابعاد الموضوعية ، لتلك الازمة التي عاناها جيل كان من ابنائه نجيب محفوظ ، ومجموعة الذين استمدوا قيمهم الهادفة ، من جلال الكلمة وقدسية الثقافة ، ثم عاشوا ليروا بأعينهم ، كيف انهارت قيمهم تحت اقدام الرجعية السياسية والاجتماعية !!

ويبقى بعد ذلك من أفراد الاسرة او من نماذجها البشرية ، ابنتا السيد احمد عبدالجواد وهما خديجة وعائشة ، ولكل منهما اتجاهها السلوكي الناتج عن وجهة نظر نفسية الى واقع الحياة .

وعلى ضوء هذا الاتجاه السلوكي ، الذي يميز كل شخصية من شخصيات العمل الروائي في « بين القصرين » ، يمكننا ان نحدد مفهوم الواقعية عند نجيب محفوظ .. انها واقعية النمط الانساني في اطار الاكثرية المطلقة ، والمحافظة على تقديم هذا النمط ، في حدود مستوياته النفسية والعقلية ، من خلال الخط الاتجاهي لسير الاحداث والمواقف . ان اسلوب نجيب في التعبير عن المضمون الاجتماعي للمشكلة ، هو اسلوب الواقعية الايحائية ، التي تحرص على نقل هذا المضمون مرتبطا بالتزامية الصدق التاريخي ، بحيث لا يخلو هذا الالتزام من عنصر الايحاء الفكري الخاص بوجهة نظر الكاتب الموقفية .. ولا تعد وجهة النظر هنا ـ بالنسبة الى طريقة نجيب محفوظ ـ نوعا من ايديولوجية الواقع التي يلتزمها اصحاب الخط السياسي في ادب القصة ، حين يتدخلون بفلسفة معينة توجه المضمون الاجتماعي ، على اساس الرؤية العقائدية لمجتمع مثالي لم يوجد في واقع الحياة ، ولكنه ينبغي ـ تبعا لوجهة نظرهم ـ ان يوجد في واقع الفن !

ومن خلال المنظار النقدي المحايد ، تبدو لنا واقعية نجيب محفوظ ، اكثر ضمانا لسلامة العرض الفني بالنسبة الى التجربة الجماعية .. ذلك لان تدخل الكاتب بفلسفة عقائدية معينة ، يفرضها على خط السير الاتجاهي للعمل الروائي ، من شأنه ان يحجب رؤيتنا الداخلية ، لحقيقة المستوى النفسي والعقلي لكل شخصية من الشخصيات .. وفي هذا الجو الضبابي لا نستطيع الا ان نلمح غير شبح الكاتب ، لانه يقف حائلا بيننا وبين الاخرين !

من هنا يبدو احمد عبد الجواد ، وامينة ، وفهمي ، وياسين ، وكمال ، وبقية افراد الاسرة يبدو كل منهم حول الاحداث التي تمر بهم ، على حقيقة مستوياتهم النفسية والعقلية ... انهم حيال احداث الثورة مثلا انماط واقعية متباينة : فبينما نجد فهمي بحكم وعيه وثقافته ، وادراكه لقيمة اللحظة الصاعدة التي تصنع

الحاضر والمستقبل ، دائم الثورة على الاستعمار ، دائم التقديس لكفاح سعد زغلول ، مضحيا بنفسه في النهاية من اجل اهدافه ومبادئه ، نجد في الاطراف الاخرى المقابلة : امينة ، وهي لا تكف عن دعاء الله ان ينشر السلام ويصفي قلوب المصريين والانجليز ، والاب وهو قانع دائما من وطنيته بالمشاركة الوجدانية دون الاقدام على عمل يغير وجه الحياة، ثم وهو يحاول ان يستغل سلطته الابوية الرهيبة ، في تجميد كل الخطوات الزاحفة لفهمي في طريق الكفاح ، ولتحي الثورة في منطق الانانية ، طالما كان الخطر بعيدا عن ابنائه .. ونرى ياسين وهو يعلق على الاحداث بأسف هادىء ، لا يمنعه من مواصلة حياته المعتادة ، والسهر حتى منتصف الليل في اوكار العاهرات .. واحدى فتيات الاسرة وهي تصب سخطها على سعد زغلول ، لانه في رايها سبب هذا الشر كله ، ولولاه لعاش هو وعاش معه بقية المصريين في دعة وسلام .. اما صغير الاسرة كمال ، فكل ما يعنيه من تلك الاحداث هو ان الجنود الانجليز ، في معسكرهم القائم امام البيت ، يحتفون به ويداعبونه ، ويقدمون له قطع الشيكولاته ، كلما اطرب آذانهم بصوته الطفولي الحبيب ... وبهذا الاسلوب من الواقعية الايحائية لا يحول المؤلف بيننا وبين رؤية السلوك الاتجاهي لكل شخصية من شخصياته ، لانه يضعنا وجها لوجه ـ دون ان يتدخل ـ امام مستويات التفكير الحقيقية لتلك الشخصيات !

ونجيب محفوظ ، يقدم الشخصية المرسومة احيانا بطريقة جديدة ، يقدم الينا النموذج الانساني في موقف من المواقف وكأنه مرآة ذات وجهين ، يعكس احدهما صورة الوجود الداخلي للنموذج نفسه ، بينما يعكس الوجه الاخر صورة اخرى لنموذج انساني مغاير ، يشترك مع النموذج الاول في التقاء الخطوط النفسية المنطلقة من نقطة ارتكاز الحدث .. اننا نرى احمد عبد الجواد مرة من خلال امينة ، ونراه مرة وكأنه واجهة عرض مزدوجة : فاذا ما فكر ياسين مثلا في شخصية ابيه او اذا ما فكرت امينة في تلك الشخصية ، تحول كل منهما ـ على امتداد الرؤية الفنية في العمل الروائي ـ الى واجهتي عرض احداهما امامية نلمح من ورائها صورة النفسية الاصيلة ، والاخرى جانبية تطالعنا بالصورة المقابلة التي تتفق معها او تختلف ، في مدى التاثر بواقع التجربة الانسانية المعاشة !

ـ ٢ ـ

مفهوم السلبية والايجابية في العمل الفني، من اي زاوية يمكن ان ينظر اليه ؟ الواقع ان هذا المفهوم يحتاج الى تحديد .. ان شخصية فهمي مثلا ـ كما رسمها نجيب محفوظ ـ شخصية تخيرت طريقها بأسلوب ارادي صارم، ورسمت لهذا الطريق بداية واعية ، صاعدة ، كانت نهايتها اشبه بعملية تتويج بطولية ، لمجموعة من خطوات النضال الهادف ... وازاء هذا التحديد الاتجاهي للشخصية الانسانية ، يبدو نجيب محفوظ ـ على ضوء الرؤية النقدية عند بعض النقاد ـ كاتبا واقعيا تتميز واقعيته بالطابع الايجابي . الذي ينبغي للروائي ان يلتزمه عند تصوير الشخصيات .. والايجابية المقصودة مصدرها ان فهمي بطل « بين القصرين » لم يكن سلبيا في مواجهة المشكلات ، ولم يكن سلبيا في مواجهة الموت .. على عكس بعض الشخصيات الاخرى كحسنين ونفيسة في «بداية ونهاية » ، حين عالج كل منهما مشكلته بالانتحار ، وهو ـ على ضوء تلك الرؤية النقدية عند هؤلاء النقاد ـ موقف هروبي بالنسبة الى المشكلة ، لان الانتحار ـ بمضمونه النفسي والانساني ـ ما هو الا عملية انهاء سلبية لحياة غير هادفة .. ومن هنا يتهم نجيب محفوظ بأنه لم يكن في عمله الروائي السابق ، كاتب الواقعية الايجابية كما ظهرت بنسيجها المحكم ، في الجزء الاول من روايته الاخيرة « بين القصرين » . وقد يتهم مرة اخرى بأنه كان سلبيا بالنسبة الى بعض المواقف التي ابرز من خلالها اخطر شخصية رسمتها ريشته ، وهي شخصية كمال بطل « قصر الشوق » و « السكرية » !

من هنا كان مفهوم السلبية والايجابية يحتاج الى تحديد .. ان الحكم بسلبية العمل الفني او ايجابيته ، يجب ان يستمد من موقف الكاتب نفسه وليس من موقف الشخصية المرسومة .. من الموقف « التأثيري » لذلك الكاتب ، وليس من الموقف « السلوكي » لهذه الشخصية. فقد يكون الكاتب ـ من ناحية التأثير الانفعالي في قرائه ـ ايجابي الهدف ، حين تكون الشخصية التي يرسمها سلبية السلوك او سلبية الاتجاه . وعلى العكس ، اذا لم يستطع الكاتب ان يفجر في وجودنا الداخلي تلك الطاقة الانفعالية ، بالنسبة الى شخصية حرص على تلوين خطوطها بلون الاتجاه الايجابي ، فهو كاتب سلبي على الاساس التحديدي للسلبية التأثيرية . ان الكاتب الايجابي الهدف، هو الذي يفتح عيون الطبقات على مشكلاتها ، وذلك عن طريق تجسيم هذه المشكلات بأي اسلوب من اساليب العرض . ولن تتم هذه العملية التجسيمية ، الا اذا استطاع الكاتب ان يصب المشكلة في نفوس قرائه ، وان يملأ وجودهم الداخلي بكل عنصر من عناصر الاثارة .. وفي راينا ان نجيب محفوظ ، قد حقق هذا الهدف الايجابي وهو يدفع حسنين ونفيسة الى الانتحار في « بداية ونهاية » ثم وهو يدفع بكمال الى هاوية التردد والحيرة والكفر بالقيم في بعض المواقف من « قصر الشوق » و«السكرية »!

لقد كانت المشكلة التي دار حولها نجيب بمجموعة الاحداث والمواقف في« بداية ونهاية» هي مشكلة الفقر ،في مجتمع انساني متخلف لا ضمان فيه .. فاذا انحرفت نفيسة عن طريق الشرف لتمارس الخطيئة « ضمانا »للقمة العيش ، واذا تحول حسن عن الحياة النظيفة ليعيش في كنف العاهرات « ضمانا » لاستمرار بقائه ، واذا اضطر حسنين ان يعتمد على صدقات اخيه البلطجي « ضمانا » لاستكمال تعليمه بالكلية الحربية ، والى ان يحكم بعد ذلك على اخته وعلى نفسه بالموت « ضمانا » لانقاذ سمعته بعد

ان اصبح ضابطا محترما في المجتمع ، فتلك هي الواقعية الايحائية التي يلتزمها نجيب محفوظ .. انه هنا يبدو ايجابيا من خلال المواقف السلبية لشخصياته ، لان هدفه الايحائي من وراء هذه العملية التجسيمية ، هو ان يفتح عيوننا على الواقع البشع للمشكلة ، وكأنه في موقف المحتج ـ الذي يدفعنا معه الى الاحتجاج ـ على مجتمع تعود ان يرغم بعض افراده ـ تبعا لخلوه من ضمان للحياة الشريفة ـ على ان يلتمسوا تلك الضمانات المنحرفة التي تتفق مع منطق الفقر والحاجة ، وتعود ان يقنع البعض الاخر بأن الموت ـ بالنسبة الى حياتهم القاسية ـ يعد طريقا من طرق الخلاص !

هذه الواقعية الايحائية التي التزمها الكاتب في «بداية ونهاية » ، هي التي تطالعنا مرة اخرى ـ بوجهها الايجابي ـ من خلال بعض المواقف السلبية لشخصية كمال في «قصر الشوق » .. ان كمال يبدو لنا اكثر من واجهة عرض مزدوجة ، انه مجموعة من واجهات العرض المتداخلة التي قدم نجيب محفوظ من وراء زجاجها الشفاف ، مختلف الخيوط الناسجة لمشكلات جيل مأزوم ، لم تستطع صحته النفسية ان تقاوم امراض مجتمع فاسد .. انه الجيل الذي عاش من بعد ثورة ١٩١٩ الى ما قبل ١٩٥٢ . لقد بدأ كمال حياته وهو صحيح النفس .. كان امتدادا طبيعيا لفهمي حين ورث عنه ايمانه بكل القيم الرفيعة ، وحين اقتبس منه اشرف جوانب شخصيته ، وحين اختار نفس الطريق الذي سار فيه .. فاذا ما تعثرت خطوات كمال ، بعد ان دميت قدماه تحت صدمات الصخور المعوقة ، واذا ما شك في قيمة قيمه التي آمن بها ، بعد ان رأى مثله العليا تنهار تحت اقدام الرجعية السياسية والاجتماعية ، فتلك هي اللحظات الموحية التي تتيح لنا رؤية الموقف الاحتجاجي للكاتب ، من خلال التصوير المجسم لواقع مجتمع مريض .. اننا نستطيع ان نحدد مفهوم الايجابية الموقفية للكاتب الروائي ، بمدى نجاحه في هز وجودنا الفكري بالقلق .. القلق الذي يصبح عملية بدء موجهة ، لكل محاولة جماعية لتغيير الاوضاع . ويستطيع الكاتب ـ من خلال لحظات الضعف في حياة ابطاله ـ يستطيع ان يصب في نفوسنا هذا القلق ، حين يربطنا بهذا الضعف ربطا شعوريا عماده تصور المشكلة بأنها ليست مشكلة فرد ، ولكنها مشكلة مجموع !

ان نجيب محفوظ ـ بقسوته المسرفة على بعض ابطاله ـ يذكرنا بالكاتب الفرنسي مورياك .. لقد سئل مورياك مرة: لماذا تسرف في القسوة على ابطالك ؟ فأجاب : ليزداد القارىء عطفا عليهم !.. والواقع ان هذا هو المفتاح ،مفتاح الغرفة النفسية الكبيرة التي يضعنا فيها كل من مورياك ونجيب محفوظ ، ونعني بها غرفة الشعور بالعطف والرحمة ازاء لحظات الضعف في حياة الاخرين .. ان عطفنا على حسنين ونفيسة في « بداية ونهاية » وعلى كمال في « قصر الشوق » ، هو وليد ذلك التأثر الانفعالي ، الناتج عن تقديرنا بأن القوى المعوقة التي اعترضت طريق حياتهم ـ كانت بالنسبة الى امكانياتهم الكفاحية ـ اكبر من ان تقاوم ... ومما يعمق مجرى الشعور بالعطف على هؤلاء الابطال ، احساسنا بأننا لو وجدنا في ظروف قاسية كظروفهم ، فربما سرنا مثلهم في نفس الحط وتعرضنا مثلهم لنفس المصير ، ومن هنا نمتلىء عطفا عليهم ، بل وثورة من اجلهم .. والكاتب الايجابي الهادف ، هو الذي يستطيع ان يكسب لابطاله ـ سواء اكانوا ايجابيين او سلبيين ـ يستطيع ان يكسب لهم من ادراك قرائه ، تلك اللحظات المضيئة بالعطف والثورة !

كمال في « قصر الشوق » ـ وكما رسم نجيب محفوظ شتى الابعاد النفسية لشخصيته ـ لم يكن يمثل نفسه ، بل كان يمثل جيلا من المثقفين وعى رسالته ، وحدد دوره، ورسم لنفسه بداية الطريق ... ولكن عوامل كثيرة ـ عرضها الكاتب من خلال العمل الفني في « السكرية » ـ قد عوقت خطوات هذا الجيل وأزمت وجوده ، لانها كانت اضخم من قدرته النضالية على تغيير الاوضاع : فانتكاس الحركة الوطنية بعد موت سعد ، وتزييف الارادة الجماعية بواسطة زعماء الاقليات طمعا في الحكم ، وتآمر القصر مع الاستعمار لخنق انتفاضات الشعب ، ورواسب الصراع الطبقي في الوجود الانساني للبرجوازية الصغيرة ، وانهيار قيم الفكر والثقافة في مجتمع سيطر عليه الانحلال الخلقي وخلا من تكافؤ الفرص .. كل هذه القوى المدمرة هي التي صنعت جذور الازمة النفسية لجيل المثقفين بعد ثورة ١٩١٩ ولقد كان كمال هو الرمز الكبير الذي رأينا من خلاله جذور الازمة في « قصر الشوق » ، وامتداداتها الرهيبة في « السكرية » !

ان المشاهد التي تقدم لنا كمال ـ كشخصية متماسكة تمثل المضمون الثوري للانسان ـ هي تلك التي يعرضها نجيب محفوظ من خلال الاحداث والمواقف في « قصر الشوق » .. هو ثائر على رأي ابيه الذي يريد له ان يلتحق بمدرسة الحقوق ليكون في المجتمع من اصحاب النفوذ ، ولهذا قرر ان يلتحق بمدرسة المعلمين ليتخذ من تعلم اللغات الاجنبية معبره الحقيقي الى شتى الثقافات . ومن خلال هذا المشهد الثوري نرى كمال وهو يقول لصديقه فؤاد : « واأسفاه ... ان والدي كاكثر الناس ممن يهيمون بالمظاهر الزائفة : الوظيفة ، النيابة ، القضاء .. هذا كل ما يهمه . لست ادري كيف اقنعه بجلال الفكر والقيم السامية الجديرة بان ينشدها الانسان في هذه الحياة » . ويقول فؤاد : « قيم جليلة من غير شك ، ولكن اين البيئة التي ترفعها الى المنزلة اللائقة بها » ؟ ويرد كمال في اصرار نبيل : « لا يمكنني ان انبذ عقيدة سامية لا لشيء ، الا لان من حولي لا يؤمنون بها » !

هذا المشهد يقدم لنا كمال انسانا مثاليا يؤمن بدور الثقافة ، يؤمن بدورها في حياة الفرد والمجموع .. ومن نافذة قيمه الثقافية الجديدة ، اطل على كثير من قيم الامس

الممتدة على حدود الرؤية العقلية ، واطلق عليها ثورته .. ثار على سلطة الاب المستبد ، كان بالامس يخاف هذا الاب ، اما اليوم « بعد ان قرعت يداه ابواب عابدين في المظاهرة الكبرى التي تحدت الملك هاتفة :

« سعد او الثورة .. فتراجع الملك واستقال سعد من الاستقالة » ، اما بعد ذلك فلن يذعن لقوة هذا الخوف ، انه وهم كسائر ما امتحن به من اوهام .. وثار على جهل امه كما ثار من قبل على استبداد ابيه ، لا بالتحدي والعصيان ، ولكن بالتحرر من قيد افكارهما الموجهة .. ويقول كمال مخاطبا نفسه : « ابى هو الفظاظة الجاهلة ، وامي هي الرقة الجاهلة .. ان جهلك يا امي هو الذي ملأ بالاساطير، فانت همزة الوصل بيني وبين عالم الكهوف . وكم اشقى اليوم في سبيل التحرر من اثارك ، كما سأشقى غدا في سبيل التحرر من ابي ! »

ثار مع الشعب على القصر ، وثار وحده على الاب ، اما ثورته على الام فلانها قد غرست في تربة نفسه منذ الطفولة ، بذور مفهوم خرافي عن الدين ... وما لبث ان ثار على هذا المفهوم الخرافي الذي ربطه بعالم الكهوف . واتسع بعد ذلك الحيز النفسي لثورته ، فشمل زعماء الاقلية الذين تعاونوا مع الاستعمار والقصر . كان الوفد « عقيدة تلقاها عن فهمي ، واقترنت في قلبه باستشهاده وتضحيته ! »

هذا الاتجاه الشعبي لبطل « قصر الشوق » ، يبرز لنا من خلال المناقشات المحتدمة في السياسة ، بين كمال وبين مجموعة من اصدقاء الدراسة الارستقراطيين .. كانوا بحكم نشأتهم الارستقراطية المنعزلة ، يتعالون على الشعب . واذا ما تكلموا عنه ، فكأنما يتكلمون عن شعب غريب. اما هو ـ ذلك المنحدر من صلب الشعب ـ فكان يدافع عنه ويقف الى جانبه ، في شخص زعيمه سعد زغلول . ومن هنا ـ وفي كل معركة كلامية تنشب بينه وبينهم ، يصبح هو مندوب سعد ، ويصبحون هم مندوبي عدلى وثروت ومحمد محمود .. كان احدهم مثلا يناقشه بهذا المنطق : « اذا كان سعد وعدلى سيين عندي في الناحية السياسية ، فانني لا اراهما كذلك كرجلين .. لا يمكن ان اتجاهل ما يمتاز به عدلي من كريم الاصل وعظيم الجاه والثقافة ، اما سعد .. فما هو الا ازهري قديم » . ويقول له الاخر : « ليست الوطنية عند سعد ، الا نوعا من البلاغة التي تستهوي العامة» وينفجر كمال في غيظ وسخرية : « ان الذين تؤمنون بهم ليسوا الا خونة ، ليسوا الا طبقة من الانجليز المطربشين.. انتم تقللون من شأن الكلام كانه لا شيء . الحق ان اخطر ما تمخض عنه تاريخ البشرية من جلائل الامور يمكن ارجاعه في النهاية الى كلمات . الكلمة العظيمة تتضمن الامل والقوة والحقيقة . نحن نسير في الحياة على ضوء كلمات ، على ان سعدا ليس صانع كلمات فحسب، ان سجله حافل بالاعمال والمواقف .. ولست في حاجة الى ان اذكركم بان العظمة شيء غير الفقر والغنى ، وغير العمامة والطربوش»!

نجيب محفوظ يقدم الصراع هنا في صورة مزدوجة : الصراع السياسي والصراع الطبقي في مجال واحد متشابك الخطوط .. حسين شداد ابن المليونير صنيعة الخديو ، وحسن سليم ابن المستشار صنيعة احزاب الاقلية في جانب وكمال احمد عيد الجواد ابن تاجر البقالة بالنحاسين في الجانب الاخر .. او عدلى وثروت في طرف ، وفي الطرف المقابل سعد زغلول . الارستقراطيون يواجهون الشعب ، والصراع جول كرم الاصل وشرف المنبت والفوارق الشاسعة بين طبقتين . ويبلغ الصراع قمته حين يفصح كمال عن حبه لعايدة اخت حسين شداد، ويكشف عن رغبته في ان تكون زوجة له .. لقد هزم الشعب في المعركة ، وخرج منها ودماؤه تنزف. لقد سخرت عايدة من اوهام كمال ،وتزوجت من ابن طبقتها حسن سليم .. فضلت ابن المستشار على ابن تاجر البقالة .. وكانت نقطة تحول ضخمة في خط السير النفسي لكمال ، تناولها نجيب محفوظ ـ من خلال العمل الفني في « السكرية » ـ كبداية لاثر الصراع الطبقي في ازمة جيل عاش في مجتمع مريض !

البقية في العدد القادم

القاهرة — **انور المعداوي**

صدر حديثا

الرغيف

بقلم توفيق يوسف عواد

« ان هذه الرواية بموضوعها هي من اروع الروايات العربية الحديثة وابعدها مغزى ، ذلك ان موضوع « الرغيف » هو اجمل موضوع في حقبة من التاريخ العربي تسجل يقظة الشعور الوطني في مختلف البلدان العربية ... وهذه الرواية تظل دائما اروع نداء واجمل دعوة الى الاستقلال والحرية ... »

سهيل ادريس

دار صادر و دار بيروت